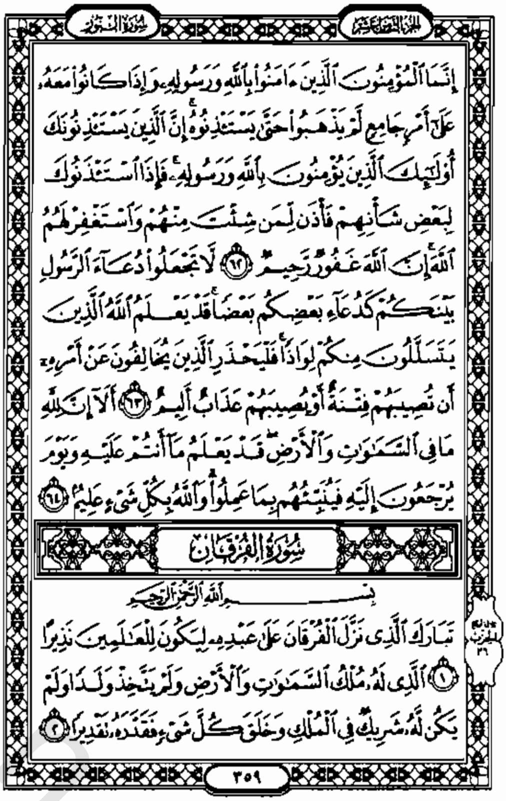
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ ٱلْفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾
٣٥٩

معانى الكلمات :

آمنوا : صدقوا بقلوبهم .

جامع : مهم .

دعاء الرسول : نداءكم له .

يتسللون : ينصرفون خفية .

لواذا : يستر بعضهم بعضا .

يخالفون : يعرضون .

تبارك : تعالت صفات الله .

قدّره : هيأه لما يصلح له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تنظيم العلاقات بين أسرة المسلمين وقائدها محمد ﷺ .

٢ ـ أن نعلم عاقبة المنافقين الذين يتبعون نهجا غير نهج الإسلام .

٣ ـ أن نتعرف على مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة أسرة المسلمين ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ﷺ ، وإلى آداب المسلمين فى مجلس الرسول ، وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهى تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التى لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ، ثم تستقر فى حياتها فتصبح تقليداً متبعا وقانونا نافذاً ، وإلا فهى الفوضى التى لا حدود لها ، فالمؤمنون يؤمنون بالله ورسوله لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ـ ولا يطيعون الله ورسوله ، وإذا كانوا معه على الأمر الجامع الهام الذى يقتضى اشتراك الجماعة فيه ،

obeikandl.com

لرأى أو حزب أو عمل من الأعمال العامة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ، فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له،ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول ﷺ رئيس الجماعة ، بعد أن يبيح له حرية الإذن ، يدع له الرأى فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ، ويستبقى حرمة التقدير لقائد الجماعة ؛ ليوازن بين المصلحة فى الانصراف ، ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يديرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى ، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى ﷺ للمعتذرين ، وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن ، وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت السياق إلى توقير الرسول ﷺ عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال ، فلا يدعى باسمه : يا محمد ، أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا ، إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله ، يا رسول الله ، فلابد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه ، وهى لفتة ضرورية ، فلابد للمربى من وقار ، ولابد للقائد من هيبة ، وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض ، يجب أن تبقى منزلته فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض ، فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ، وهو تعبير يصور حركة التخلى والتسلل بحذر من المجلس ، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس، وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعيب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهى فترة شقاء للجميع فى الدين أو فى الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختم هذا التحذير ، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه ، وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير ، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهى ، وهذه الأخلاق والآداب التى فرضها الله فى هذه السورة ، وجعلها كلها سواء .

سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية وتطمين له ، وتقوية وهو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن من عنده ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا ، ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير ، وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون ، والتبادل تفاعل من البركة يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا .

يقول صاحب **الظلال** : « وسماه فرقانا بما فيه من فارقٍ بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد ، فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها الممثلة فى الواقع » .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده ، وأنه رسالة للعالمين وطبيعة هذه الرسالة طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ، ونهايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج على نهج عن طريق هذا الفرقان الذى نزله صاحب السيطرة المطلقة على السموات والأرض ، فهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج إلى ولد أو شريك فى الملك ، والكل شاهد وعلى وحدة التصميم ووحدة الناموس ووحدة التصريف ، وقد قدر سبحانه قدر كل شىء وحجمه وشكله ، وقدر وظيفته وعمله ، وقدر زمان ومكانه ، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وحرمة مخالفة أمره ونهيه ، وتوقيره فى حياته وبعد مماته .

٢ ـ المتجرئ على الاستهانة بسنة رسول الله ﷺ يخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة .

٣ ـ ضرورة التفكير والبحث فى مختلف العلوم للتعرف على حكمة الله تعالى وبديع صنعه .

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ
افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ
فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ
لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

معاني الكلمات :

نشورا : بعثا بعد الموت .

زورا : كذبا عظيما .

أساطير : أكاذيب .

تملى : تقرأ .

مسحورا : مغلوبا على عقله بالسحر .

يستطيعون : يهتدون .

اعتدنا : أعددنا .

سعيراً : نار شديدة الاشتعال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على تطاول المشركين على مقام الخالق ـ جل وعلا .

٢ ـ أن نقف على تطاول المشركين على رسول الله ﷺ .

٣ ـ أن نتعرف على تفاهة ما يقترحه المشركون من أعراض الحياة الدنيا .

المحتوى التربوي :

مع ما ينكشف للعلم البشرى يوما بعد يوم من تقدير الله العجيب فى الخلق ، وتدبيره الدقيق فى الكون ، فإن المشركين لم يدركوا شيئا من هذا كله ، واتخذوا آلهة مجردة من خصائص الألوهية فهم لا يخلقون شيئا ، والله خلق كل شيء ، وتلك الآلهة تصنعها عُبَّادُها إن كانوا أصناما ويخلقهم ويوجدهم الله إن كانوا ملائكة أو جنا أو بشراً أو شجراً أو حجراً ، ولا يملكون لأنفسهم فضلا عن أن يملكوا لعبادهم ضراً ولا نفعا .

والذى لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه ، ولا يملكون إماتة حى ، ولا إنشاء حياة ، ولا إعادتها داخل فى مقدورهم ، فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين فى اتخاذهم آلهة ؟ !

obeikandl.com

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله ﷺ ويرد عليه عقب عوضه بما يظهر سخفه وكذبه ، فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد ﷺ شىء آخر غير كلام البشر ، وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم فى الكلام ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن ، ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يخون ، فكيف به يكذب على الله ، وينسب قولا لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها فى وسط جمهور العرب بأن ما يقوله محمد كذب وافتراء ، واستعان على جمعه بقوم آخرين ، وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل ، ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم فى هذا القول المتهافت إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت وأن ما قالوه زور واضح الكذب ظاهر البطلان .

ثم يمضى السياق فى استعراض مقولاتهم عن الرسول ﷺ وعن القرآن ، ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التى يسوقها للعبرة والعظمة وللتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : أساطير الأولين وزعموا أن الرسول ﷺ طلب أن تكتب له لتقرأ عليه فى الصباح والمساء إذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ـ ثم يقولها هو بدوره وينسبها إلى الله ، ويجاب عليهم بأن الذى يمليها على محمد أعلم من كل عليم ، فهو الذى يعلم الأسرار جميعاً ، ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين ، فأين علم حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر فى السموات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذى لا ساحل له ولا قرار ؟

ثم يستطرد السياق فى عرض مقولاتهم عن رسول الله ﷺ واعتراضاتهم الجاهلة على بشريته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته ، ويأتى الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول، كيف يمكن أن يكون فلان بن فلان ، المعروف لهم ، المألوف فى حياتهم ، الذى يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون ، كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالمٍ آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم ، وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحى لواحد منهم لا يتميز فى شىء عنهم .

وهم لا يعلمون أنها الحكمة الإلهية تبدو فى رسالة واحدة من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعانى تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم ، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو فى قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ؛ لأنه فى النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحى من الله وعون منه على وعثاء الطريق .

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشي في الأسواق ليكسب رزقه ، فهلا كفاه الله ذلك ، وحباه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل ، والله لم يرد لرسوله ﷺ أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة ؛ لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ، ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته ، فهو هو ذا رسول الله ﷺ يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمته بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة .

وما المال؟ وما الكنوز؟ وما الجنان؟ حين يتصل الإنسان الفاني الضعيف بالله الباقي القوى؟ وما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شيء ، وواهبه الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون ، فاعترضوا بأنه رجل مغلوب على عقله ، وهى كلمة ظالمة فاحشة ، والرد عليهم يوحى بالتعجيب من أمرهم : فقد شبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك ببرودة الأساطير مرة وكله ضلال ، وبعد إدراك الحق ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدى ، ولو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع ، ولكنه شاء أن يجعل له خيراً من الجنات والقصور ، الاتصال بواهب الجنات والقصور ، والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوفيقه ، وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذى لا تقاربه به نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون .

يقول الإمام **محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير** : « إن هذا بلا ريب نظرات ناس ماديين لا يؤمنون بالروح ، ولا بالمعانى الإنسانية العالية ، إنما يؤمنون بالمادة وحدها ، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة ، إما بملك قاهر ، أو بمتع يلقيها إليهم ملوك قاهرون » .

ويكشف السياق عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم ، فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء، ولا يخشون يوما يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء، ثم يكشف عن الهول الذى ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، وهو مشهد يزلزل القلوب الصلدة ، ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن ينهض بنصيبه من تكاليف هذه الرسالة .

٢ ـ ألا نحتقر الفقير لفقره ، وألا نسخر ممن هو أقل منا فى شىء ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب .

٣ ـ الاتصال بواهب الجنات والقصور وتذوق حلاوة هذا الاتصال لا تقاربه نعمة من النعم.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي
هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

معانى الكلمات :

تغيظًا : صوت غليان كصوت المتغيظ .

ثبورا : هلاكا .

ضلوا : زاغوا ، وتاهوا عن الطريق الصحيح .

نسوا : غفلوا .

بوراً : هلاكا .

صرفًا : منعا للعذاب .

نصرا : انتصارا لأنفسهم .

فتنة : ابتلاء وامتحانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر رهبة العذاب فى الدار الآخرة .

٢ ـ أن نعلم أن فى ثواب الآخرة تعويضًا كبيرًا عما يصيب الإنسان المؤمن فى الدنيا من آلام .

٣ ـ أن نقف على خطورة طول العمر وسعة الرزق فى مقابل نسيان ذكر الله تعالى .

المحتوى التربوى :

يقف بنا السياق أمام مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ، فإذا هى تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة ، تراهم من بعيد ، فإذا هى تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهى تتحرق عليهم وتصعد الزفرات غيظا منهم ، وهى تتميز من النقمة وهم إليها فى الطريق ، مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب ، فعن ابن عباس : « إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه يستجير منى ، فيقول : أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار ، فيقول : يا رب ؛ ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول: أن تسعنى رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدى، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف » وهذا إسناد صحيح .

obeikandl.com

وها هم هؤلاء قد وصلوا ، فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء ، يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم بل ألقوا إليها إلقاء ، ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم فى السلاسل ، وألقوا فى مكان منها ضيق، يزيدهم كربة وضيقا ، ويعجزهم عن التفلت والتململ، ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء ، يسمعون تهكما ساخراً مريراً : فلا تدعوا هلاكا واحدا فهو لا يجدى شيئا ، ولا يكفى شيئاً .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « وإنى أرى أن السعير شبهت بالإنسان الذى يرمى ويتغيظ ويزفر ، ويحس ويشعر ، إذا رأى شخصا يريد عقابه ، فإنه يتغيظ ويزفر ، والمعنى أن السعير تستعد وتتهيأ هائجة ؛ لمجيء العصاة إليها ، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفير من مكان بعيد » .

وفى هذا الموقف المكروب الرعيب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة ، يعرض فى أسلوب متهكم كذلك ساخر: أذلك الكرب الفظيع خير؟ أم جنة الخلود التى وعدها الله للمتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذى لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها ما يشاؤون ؟ وهل هناك وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم .

ثم يمضى مستطرداً يعرض مشهد آخر من مشاهد الساعة التى كذب بها المكذبون ، مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التى كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عبادًا ومعبودين أمام الديان يسألون ويجيبون ، وما يعبدون من دون الله ، قد يكونون هم الأصنام ، وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون الله ، وإن الله ليعلم ، ولكن الاستجواب هكذا فى الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ، والجواب هو الإنابة من هؤلاء الآلهة ، الإنابة إلى الله الواحد القهار ، وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون الله ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال ، فهذا المتاع الطويل الموروث على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر ـ قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار ، كالأرض البور لا حياة فيها ، ولا زرع ولا ثمار والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحى كذلك بالجدب والخواء ؛ جدب القلوب وخوار الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزى المهين : فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قربانا يقربونكم إلينا زلفى ، وقالوا : بأنه ما ينبغى لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك، ولا يقدرون على صرف العذاب ولا الانتصار .

وبينما المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد فى الأرض ، ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تتهيأ فيها للاستجابة ، وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب .

والآن وقد شهدوا وشهد الرسول ﷺ نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء ، ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه فى الأسواق ، الآن يعود إلى الرسول ﷺ يسلبه ويؤسيه ؛ بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء ، فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه ، إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله ، سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة ، وهى اختبار بعضكم ببعض ، وابتلاء بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ومن هو الصابر والذى لا يقوى على الصبر .

قال الزمخشرى: « هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوا واستبدعوه من أكله الطعام ، ومشيه فى الأسواق بعدما احتج عليهم سائر الرسل ، يقول : وجرت عادتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم ـ أيها الناس ـ ببعض ، والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل » .

ولو شاء الله أن يجعل الدنيا مع رسله فلا يخالفون لفعل ، ولكن أراد أن يبتلى العباد بهم ويبتليهم به » ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إنى مبتليك ومبتل بك » ، وفى الصحيح : أنه خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

وزيادة فى التسلية فى مجال طعن الكافرين يخبر الله تعالى بأنه عالم فيما يبتلى به وغيره ، بصير بالطبائع والقلوب والمصائر والغايات ، ولهذه الإضافة هنا ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ ﴾ ايحاؤها وظلها ونسمتها الرخية على قلب الرسول ﷺ فى مقام التأسيه والتسلية والإيواء والتقريب والله بصير بمداخل القلوب .

وهى لمحة تصور الإيناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله ، وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحًا رفيقا ، ويهدد قلبه ، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة ، فى مواجهة المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة ، وهى تجادل فى عنف وتشرد فى جموح ، وتتطاول فى وقاحة ما وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القيمة الحقيقية للإنسان ليست فيما يملك من مال من أهمها تمسكه بدينه وسلامة عقله وحسن تفكيره .

٢ ـ الدنيا دار ابتلاء والفلاح بالصبر والتحمل .

٣ ـ العاقل من يصبر على ما يصيبه ، ويثبت على إيمانه ، ليفوز بحسن الثواب فى الآخرة .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا
(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ
يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)

معانى الكلمات :

عتوا عتواً : تجاوزوا حد الظلم .

منثوراً : متفرقاً ذاهباً .

أحسن مقيلا : أحسن منزلاً ومأوى .

يا ويلنا : يا هلاكنا .

لنثبت به فؤادك : لتقوى به قلبك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن قبح الكفر وأهله .

٢ ـ أن يستشعر المؤمن مشاهد يوم القيامة .

٣ ـ أن يستمر المؤمن فى دعوته مخلصا واثقا نشيطا مضحيا .

المحتوى التربوى :

تبدأ هذه الآيات بذكر تطاولات المشركين وسفاهاتهم ، فهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا تستشعر قلوبهم الخشية من الله وهم يستبعدون أن يكون الرسول بشراً بل ملكا ، وهم يطلبون رؤية الله . عز وجل . وهذا شأن الكفار دائماً ، فبالرغم من أنهم كالذرة التافهة .. التائهة فى ملك الله وخلقه إلا أنهم عظم شأنهم فى أنفسهم ، فاستكبروا وطغوا حتى عجزوا عن تقديرها تقديراً حقيقياً .

وتأتى الآيات بعد ذلك لتُعلم الكفار بوزنهم الحقيقىّ على طريقة السخرية كما كانوا يتعاملون، فالملائكة تعذبهم لا تبشرهم فيلجؤون للدعاء ، فلا يعصمهم ولا يمنعهم ، وحتى

أعمالهم الصالحة لا تنفعهم ؛ لأنه لا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

ثم تلفت الآيات لجانب آخر وهم أصحاب الجنة وهم مستقرون مستروحون ناعمون فى الظلال ، والاستقرار يقابل خفة الهباء المنثور ، والاطمئنان يقابل الفزع ، وهذه المقابلات لطمأنة المؤمنين الذين جاهدوا فنعموا بالظلال ، أما الكفار فطغوا فعذبوا ، حتى استغاثوا ولا مجير لهم .

ويواصل النص القرآنى زلزلة قلوب المشركين ، وتجسيم مصيرهم المخيف بأن النهاية ستكون مروعة ، فالسماء تتشقق بالغمام نتيجة الانفجارات المروعة ، وتنزل الملائكة ـ ملائكة العذاب إليهم ، ويعلم الجميع أن الملك لله الواحد القهار ، ويتحسر الكفار حتى يعض الظالم على يديه ؛ لأن يداً واحدة لا تكفيه ، فيداول بين هذه وتلك لأنه فى أشد حالات الندم ، وقمة التحسر أن يتبرأ من كل خليل خذله ، لأنه كان شيطانا يضله ، أو كان عوناً للشيطان ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾ وهذا السياق يعرض لأهوال يوم القيامة ، ومشهد الأسى والندم والأسف الذى يسيطر على الظالم نفسه ، أما المؤمنون فهم أصحاب الجنة يرون حسن مقيلهم وطيب مستقرهم ، فالدعاة يتحملون الآلام والتضحيات ، ويخافون ربهم فى دنياهم فأمنهم الله فى أخراهم ، الظالمون بغوا وطغوا وركنوا إلى الظل الزائل فأفزعهم وأخافهم ؛ لأن الله لا يجمع على عبده بين أمنين وخوفين .

وبعد هذه الجولة فى اليوم العسير يعود النص القرآنى لمشهد الرسول مع قومه ، وهو يشكوهم بشكاية واحدة ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ دعاء للبث والإنابة ، لأن ربه يعلم ، يشهد به لربه أنه لم يأل جهداً ، ولكن قومه لم يتدبروا ذلك ، وهذا شأن الدعاة يبذلون أقصى الوسع والطاقة ، وعندما يشكون لا يشكون إلا لربهم ليثبتهم وليعينهم على ما نزل بهم من الملمات .. وأى ملمة أشد وأنكى من هجر القرآن لا هجر قراءته فحسب ، بل هجر تدبره وهجر تطبيق أحكامه وتعاليمه ، والعمل به ، فلا يكفينا طبع المصاحف بالأغلفة اللامعة والأوراق المصقولة ، ووضعه بتنسيق فى مكان أنيق بل جاء القرآن ليكون منهاج حياة ليقودها إلى أقوم طريق .

وتأتى التسلية الربانية إزاء الدعاء النبوى بأن سنة الله فى جميع الرسالات بأن لكل نبىّ أعداء يهجرون دعوته ، ويصدون عن سبيل الله . حتى يقوى عود الرسالات ، وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها ـ مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق ـ هو الذى يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة .

يقول صاحب الظلال : « لو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها فى الطريق خصوم ومعارضون ... لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة ، ولكن

بروز الخصوم والأعداء للدعوات هو الذى يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودًا ، فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذى يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا ، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا فى سبيلها ، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودًا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس إن بروز المجرمين فى طريق الأنبياء أمر طبيعى ، فدعوة الحق تأتى لعلاج فساد ، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئونه ويستغلونه ، فطبيعى أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، وطبيعى أيضا أن تنتصر دعوة الحق فى النهاية لأنها تسير مع خط النهاية » .

ثم يأتى النص القرآنى باستعراض مقولة أخرى ، ويرد عليها وهو تمنى الكفار أن ينزل القرآن مرة واحدة وهذه المقولة نتيجة لتخبط تفكيرهم وقبحه ، فإن القرآن منهج حياة يتعود المرء على تحمل تكاليفه شيئا فشيئاً ، ومن جانب آخر لتثبيت قلب الرسول ، وإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل .

يقول صاحب الظلال : « لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، وينشىء مجتمعا ، ويقيم نظاما ، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع ، والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد ، إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتتدرج فى مراقيه رويدا رويدًا ، وتعتاد على تكاليفه شيئا فشيئا .. وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالى أكثر استعدادًا للانتفاع بالوجبة التالية ، وأشد قابلية لها والتذاذا بها » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن أعداء الدعوات الحقة لا ينفكون فى إلقاء الشبهات ، وأن على أصحاب الدعوة الرد عليها وتفنيدها .

٢ ـ بث الثقة والطمأنينة فى نفوس العاملين فى الدعوة فى أن لهم أجراً عند الله لا يقدره البشر: إن أجرى إلا على الله .

٣ ـ الحذر من بطانة السوء وشياطين الإنس والجن .

٤ ـ اتخاذ القرآن منهجا ودستورا والوقوف عنده بقراءته وتدبره وتحكيمه واتباع أوامره وتعاليمه .

٥ ـ أن يثق الداعية فى دعوته ، وألا ترهبه كثرة الأعداء وسطوتهم .

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ
مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

معانى الكلمات :

آية : عبرة .

تبرنا تتبيراً : أهلكنا إهلاكا .

هزوا : مهزوءا به .

اتخذ إلهه هواه : اتبع هواه وميوله الشخصية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن أمانه تبليغ الدعوة .

٢ ـ أن يعرف الداعية بعض نماذج للدعوات السابقة .

٣ ـ أن يدافع الداعية عن دعوته وقادتها .

المحتوى التربوى :

تتابع الآيات طمأنة قلب الرسول وتثبيته بأن الكفار الذين يجادلون الباطل ، فالله يرد عليهم باطلهم بالحق الذى يدمغه ، وهذه سنة الله فى أنه لا يترك الدعاة بل يمدهم بالعون والتأييد لنصرة الحق القوى بنفسه ، ليس لمجرد الانتصار فى الجدل ، ولا الغلب فى المحاجة .

يقول القاسمى : « إن تفريق الوحى وتمديد مدته بديهى الثبوت لمقدار مكث النبى ؛ إذ مادام بين ظهرانى قومه ، فالوحى يتوارد تنزله ضرورة ، ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحا لا مرية فيه ، وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك ، وما كل كلام معرّض به ، وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعنت متفنن فيه » .

opeikandi.com

وتنتهى هذه الجولة بمشهد الكفار يوم القيامة ، وأنهم يحشرون يوم القيامة جزاء تأبيهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم فى جدلهم العقيم ، وهذا العقاب وما فيه من الإهانة والتحقير تعزية للرسول عما يلقاه منهم فإن كانت آذان الخلق قد سدت عن سماع دعوته ، فإن أبواب السماء قد فتحت لتلبية دعائه.

وتأتى الآيات بعد ذلك بأمثلة سريعة ترسم مصير المكذبين الذين عاندوا رسلهم ، لكن سنة الله فى نصرة الحق قائمة ؛ فموسى عليه السلام أرسل لفرعون وملئه ، وكان مع موسى أخوه هارون وزيرا ، فلم يرهبا فرعون وقوته وطغيانه ؛ لأن الله معهما يسمع ويرى ، ونصر الله الحق ودعوته ، وأدال الباطل وشيعته وأغرق فرعون ، وأغرق قوم نوح ، وأهلكت عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون أخرى كثيرة .

وهذا عقاب الدنيا عياناً أمام أصحاب الدعوات ؛ ليثبتوا على الطريق أمام الجاحدين والظالمين ، وتنتهى الآيات بمصرع قوم لوط ، وهم يمرون عليه فى سدوم فى رحلة الصيف إلى الشام ، وقد أهلكها الله بمطرٍ بركانى من الأبخرة وذكر سبب هلاكهم أنهم لا يرجون نشوراً، وهذا سبب قساوة تلك القلوب وانطماسها ، فإن الإيمان بالبعث والنشور يحرك القلوب نحو الخشية الله والعمل له .

ثم تتابع الآيات بذكر استهزائهم بالرسول رغم أن محمداً ﷺ ملء السمع البصر منهم ، وهو من ذروة بنى هاشم وهم ذروة قريش ، ولقب بالصادق الأمين ، وقالوا له وهو على جبل الصفا: أنت عندنا غير متهم ، فلما جاء هذا الاستهزاء ؟ ! **يقول صاحب الظلال فى ذلك** : « كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ، ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقام ، وكانت وسيلة من وسائل المقاومة للدعوة التى تهدد مراكزهم ، وكل ذلك للحط من شأنه من نفوس أتباعه » .

إن شأن قريش فى هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعاتها فى كل زمان وفى كل مكان ، يكيلون الاتهامات والانتقاصات لرموز الدعوات وقادتها .

كل هذا والظالمون يعلمون كذب دعواهم وزيف أقاويلهم حتى يستبقوا لأنفسهم المنافع ، فتارة يرمونهم بخلط الدين بالسياسة ، ويتهمون الدعوة بالرجعية والتحجر ، ويعتبرون الالتزام تزمتا ، والاحتشام قيداً وتحجرا ، أما الدعاة فيصبرون ويصابرون لأنهم يطلبون الأجر من الله .

ولا تتركنا الآيات دون أن تورد لنا اعترافاً من الكافرين بأثر الدعوة فيهم إلا أنه فى سبيل الاحتفاظ بالمراكز والمغانم قاوموا تأثرهم بالدعوة وبشخصية النبى ﷺ وبالقرآن وهديه ، وهم

فى ضلالهم يسمون هداية الرسول لهم إضلالا ، والصد عن الدعوة صبراً ، وهذا يزيد فى حماسة الدعاة ، فإن دعوتهم تصل لقلوب المستعدين للإيمان ، وتزلزل قلوب الظالمين ؛ حتى إنهم يعترفون بذلك مع تظاهرهم بالاستخفاف بشخصه ودعوته إصرارا وعنادا ، ولا ينتهى هذا الموقف دون أن نرى جزاء الصدد عن دعوة الله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

كل ذلك ليرى الدعاة أن طريق الحق نهايته النجاة والفوز برضوان الله ، وأن طريق الصد هو طريق الشيطان الذى يتبرأ منهم فيعلمون حينئذ أنه طريق الضلال ولكن حين لا ينفع العلم .

ثم يأتى التعبير العجيب الذى يخفف عن الدعاة من جهة ، ويرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية من جهة أخرى ، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ ، فهو يخفف عن الدعاة فإنهم ليسوا بمسيطرين على المدعوين فهم يدعون ويذكرون ، أما من اتخذ إلهه هواه واتبع شهواته ، فالدعاة ليسوا بوكلاء عليهم ، ومن جهة ترسم نموذجا لحالة نفسية بارزة كما **يقول صاحب الظلال** : « حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعل منه إلها يعبد ويطاع » .

يقول الزمخشرى : « من كان فى طاعة الهوى فى دينه ، يتبعه فى كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلا ، ولا يصغى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبودًا إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتوكل عليه وتجبره على الإسلام ؟ وتقول لا بد أن تسلم ، شئت أو أبيت ، ولا إكراه فى الدين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ إن الظالمين لهم عقوبات فى الدنيا ، وأعد لهم عذاب أليم فى الآخرة ، وعلى الداعية أن يتتبع تدريجيا هذا الأمر ، ويضرب للمدعوين أمثلة لذلك .

٢ ـ إن أشد الناس ابتلاء هم القادة بما يلقى عليهم من الشبهات،وبما يحاك لهم من المؤامرات، وعلى العاملين الثقة بقادتهم وإعانتهم فى الحق الذى يرمون إليه .

٣ ـ إن تخاطب الدعوة كل الفئات ؛ لأن الحق دولته قائمة إلى قيام الساعة .

٤ ـ ألا يشق الدعاة على أنفسهم إذا دعوا ولم يستجب لهم ، فالدعوة مهمتهم وليس إيمان الناس ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٣) .

معانى الكلمات :

سباتا : راحة .

صرفناه : كررنا فيه العبر أو أنزلناه على أماكن متنوعة .

مرج البحرين : أجراهما متجاورين .

ملح أجاج : شديد الملوحة .

حجراً محجوراً : حراماً محرماً .

ظهيراً : معينا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن بعض نعم الله فى الكون .

٢ ـ أن يعرف الداعية الحكمة من نزول القرآن

٣ ـ أن يسلك الداعية مسلك القرآن فى كل أموره .

المحتوى التربوى :

تأتى هذه الآيات ، وفى بدايتها احتراز من جمع الكل فى سلة واحدة ، فالتعبير القرآنى فيه التحرز والإنصاف ؛ لأن قلة من الكفار تجنح إلى الهدى ، وفى هذا تعزية للدعاة بأن هذا واجبهم، لأن الله لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً .

يقول صاحب الأساس : « دلت الآية على أن من أطاع هواه فيما يأتى ويذر ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، ومن ثم بين الله لرسوله ﷺ هذا الذى لا يرى معبودًا إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى » .

والكفار حين يبعدون عن الهدى ينحطون لدرجة البهائم ، وما الفرق بين الإنسان والبهيمة إلا بالتدبر والإدراك الذى أودعه الله إياه ، وإن الأمانة التى أبت الجبال والسموات والأرض أن يحملنها وقبلها الإنسان كان سلاحه فيها العقل والإدراك فهم عندما يفقدون عقولهم ، فقد تساووا بالأنعام والجمادات بل أضل سبيلا وطريقا ، وفى هذا عبرة للدعاة والعاملين أنهم يتبعون منهج العقول المستنيرة ، والبصائر الوضيئة .

ثم تترك مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول ، لنبدأ جولة فى الكون وآفاقه الواسعة حيث مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمده ثم تقبضه فى يسر ولطف إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث إلى مشهد البحرين الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها الماء المحيى للموات إلى مشهد الفرات والأجاج ، وبينهما برزخ يمنعهما ويحجز بينهما فلا يختلطان ، ومن السماء إلى ماء النطفة .

يقول صاحب **الظلال** فى تعليقه على ذلك : « فى خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب ، وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيها ، ويذكر بقدرته وتدبيره ، ويعجب معه إشراك المشركين فى عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، فهو تصرف عجيب فى وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، وهذا تنوع فى عرض الدعوة تارة بالخطاب العقلانى ، تارة بذكر العذاب الأليم للأمم السابقة ، وتارة بذكر مشاهد الكون البديع وقدرة الله فيها ـ فمشهد الظل الوريف يقع كاليد الآسية الرحيمة على الرسول فى مكة ، ومع قلة من المؤمنين يواجه كثرة من الكفار خاصة أنه لم يؤذن له بعد فى مقابلة الاعتداء بالاعتداء .

ثم يأتى مشهد الليل الساتر والنوم الساكن ، والنهار ما فيه من حركة ونشور ، فالنوم هو الموت الصغير ، فالبشر ينتبهون وينامون والله لا يغفل ولا ينام ، ومشهد نزول الأمطار يلقى على الحياة ظلا خاصاً ظل الطهارة ، فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية ، وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذى ينشئ الحياة فى الموات ويسقى الأناسى والأنعام والمتجبرون الذين يهددون الدعاة بقطع أرزاقهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، هم أنفسهم لا يملكون شيئاً وهم يعيشون فى فيض النعيم الإلهى ولكن لم يذكروا ، وعلى الدعاة ألا يقنطوا ؛ لأن سنة الله : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

والتعقيب القرآنى بعد ذلك يبين ضخامة المهام التى كلف بها الرسول ، فلأن الكثرة ضالة مع أن دلائل الإيمان حاضرة ، ولو شاء الله لبعث فى كل قرية نذيرا ، لكنه عز وجل . اختار لها عبدا واحدا ، وكلفه بإنذار القرى جميعاً ، لتتوحد الرسالة الأخيرة ، فلا تتفرق على ألسنة الرسل فى القرى ، والمعين على هذه المشقة هو القرآن بما فيه من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ،

فالقرآن هو سلاح الداعية يطبقه ويجعله خلقه ، والجهاد بالقرآن ينبغى أن يكون جهاداً كبيرا ؛ لأنه الحق أمام شهوات النفس ، وفساد المجتمعات فهو قوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو مجال .

قال أبو السعود : « وهذه الآية من أصرح الأدلة فى وجوب مجادلة المبطلين، ودعوتهم إلى الحق بقوة، والتفنن فى محاجتهم بأفانين الأدلة ، فإن الحق يتضح بالأدلة ، كما أن الشهور تشتهر بالأهلة » .

ثم يأتى السياق القرآنى ، فبعد مشهد الرياح يأتى مشهد البحار العذبة والملحة ، وما فيه من التقدير الحكيم والصنع البديع ، فالبحران الفرات العذب والملح الأجاج يلتقيان ولا يختلطان، ومستوى مياه الأنهار أعلى من مستوى سطح البحر للحفاظ على حياة الناس والأنعام والنبات، وهى ليست مصادفة بل أنشأ الكون لغاية ، ومن ماء السماء وماء البحر وماء النهر ينتقل إلى ماء النطفة الذى تنشأ منه الحياة البشرية ؛ لأن كل ما ذكر من الآيات مسخرة للإنسان ليقوم بأعباء الرسالة وتكاليف الدعوة .

ويأتى التعبير القرآنى بعد ذلك باستنكار الكفر الذى يتنافر مع الفطرة ، فالكافر وهو صغير تافه يعلن حرباً على مولاه وربه ، وهنا يظهر قبح جحود النعمة وكفرانها وتسلية للدعاة ، فالظالمون حاربوا الله ورسوله ، فليس بدعاً أن يحاربوا الدعاة ويبارزوهم العداوة ويلصقوا بهم التهم الباطلة ويظاهروا الشيطان على معصية الله ويعينه .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام التى لا تملك لهم ضرّا ولا نفعا ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عرض الأدلة الحسية بتنسيق فى مكانها وزمانها بالتدبر قد يكون أفضل من المواعظ والدروس .

٢ ـ الجهاد بالقرآن يشمل جهاد السنان واللسان ، فالقرآن هو العدة والعتاد لكل مؤمن وداعية .

٣ ـ عدم موالاة الكفار وطاعتهم والركون إليهم ؛ لأنهم لا يضمرون إلا كل الشر ، وأن يحذر الدعاة منهم ويحذروا المدعوين منهم ومن أذنابهم وخططهم ووسائلهم ونشراتهم ودورهم وأنديتهم ، والحذر من تقليدهم .

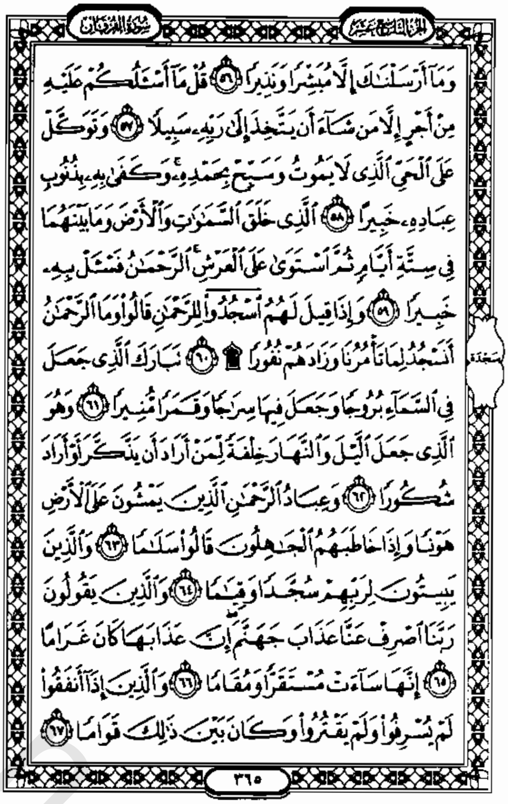
الجزء التاسع عشر سورة الفرقان

وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴿٥٦﴾ قل ما أسألكم عليه
من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴿٥٧﴾ وتوكل
على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب
عباده خبيرا ﴿٥٨﴾ الذي خلق السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به
خبيرا ﴿٥٩﴾ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن
أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ۩ ﴿٦٠﴾ تبارك الذي جعل
في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴿٦١﴾ وهو
الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد
شكورا ﴿٦٢﴾ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض
هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴿٦٣﴾ والذين
يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴿٦٤﴾ والذين يقولون
ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما
﴿٦٥﴾ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴿٦٦﴾ والذين إذا أنفقوا
لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴿٦٧﴾

سجدة

٣٦٥

معاني الكلمات :

نفوراً : تباعداً عن الإيمان .

تبارك : تعالى وتمجده .

بروجاً : منازل للكواكب السيارة .

منيراً : مضيئاً بالليل .

خلفه : يتعاقبان .

غراماً : موجعا .

لم يقتروا : لم يبخلوا .

قواماً : وسطا وعدلا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن دائما بقيمة الركون إلى الله والتوكل عليه .

٢ ـ أن يعرف المؤمن صفات عباد الرحمن .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى العبادة لله بمفهومها الشامل .

المحتوى التربوى :

تورد الآيات واجب الرسول هو التبشير والإنذار . كان هذا فى المرحلة المكية ، أما فى المرحلة المدنية فقد شُرع القتال فى المرحلة الأولى لابد من إعداء الرجال المخلصين حتى يكونوا للمجتمع المسلم الذى يحكمه الإسلام ، ثم بعد ذلك لابد من القتال لإزالة الموانع ، أمام حرية انتشار الدعوة ولحماية المؤمنين كى لا يكون فتنة ، وكى يكون الدين كله لله .

أما ثواب الدعوة فلا ينال من البشر ؛ لأن البشر لا يستطيعون ذلك فالثواب من الله ، فالدعاة يطلبون الأجر من ربهم ، ويتوكلون عليه ، ويصبرون على لأواء الدعوة فهم عاملون مخلصون عابدون مسبحون أوابون .

obeikandl.com

قال الإمام الشوكانى : « خص صفة الحياة إشارة إلى أن الحىّ هو الذى يوثق به ، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور » .

ثم تأتى الآيات لبيان عظمة المتوكل عليه من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ومع هذا يقابل الكفار ذلك برفض السجود لله استكبارا ، بل ويسألون : ما الرحمن ؟ ويقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليمامة يعنون به مسيلمة الكذاب ، فهذه صورة كريهة من صور الاستهتار والتطاول ؛ تذكر للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول والدعاة ، فلا يضجر الدعاة من ذلك، فمن تجرأ على الذات العلية ، فلا يبعد أن يتجرأ على السائرين فى ركاب الدعوة . ويكون التعليم الإلهى بعد ذلك للرد على تطاولهم بتمجيد الله سبحانه وذكر نعمه فى جعل السماء مزينة بالنجوم وبالقمر المضىء وتعاقب الليل والنهار ، وهذا التعليم هو قمة الرد ، وذروة سنام الجدال بالحسنى ، ومقابلة التطاولات والسفاهات بالتوجيه للتأمل فى خلق الله وبديع صنعه .

ثم ينتقل السياق القرآنى بتناغم عجيب لذكر صفات عباد الرحمن ، وهم خلاصة البشرية فى كفاحها الطويل بين الهدى والضلال ، ولولاهم لهلكت الأرض ، فالبشر أهون على الله من أن يعبأ بهم . .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « هذه الآيات الكريمات تصور صفات المؤمنين التى يتكون منها المؤمن الصادق وهى تجمع بين أمور ثلاثة من الصفات : **أولها** : الصفات الموجبة المكونة معنى الإيمان ، والتى هى خلال أهل الإيمان الذين تعلو الإنسانية بهم ، ولا يستعلون عليها ، وهى من أول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ .

وثانيها : صفات سلبية ، وهى التى تبتدئ من هذه الآية الأخيرة .

وثالثها : الذين يبتغون الحياة الزوجية بالطهر والعفاف ، وختم سبحانه الآية ببيان الجزاء الأوفى .

ومن صفات عباد الرحمن نهارًا :

ـ أنهم يمشون على الأرض هوناً . أى مشية سهلة ليس فيها تكلف .

ـ لا خيلاء ولا تماوت ، فالمشية تعبر عن الشخصية ، كان رسول الله إذا مشى تكفَّأ تكيفًا ، وكان أحسن الناس مشية ، وأسكنها ، وهذه مشية أولى العزم والهمة والشجاعة .

ـ وهؤلاء الدعاة فى جدلهم ووقارهم وقصدهم وقد شغلت نفوسهم باهتمامات كبيرة ، ولا يشغلون بالهم بحماقات الحمقى يصونون أوقاتهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ .. لما يشغلون هذا الوقت بما هو أهم وأرفع وأكرم من المهاترات .

أما ليلا : فعباد الرحمن فى عبادة مستمرة ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يقومون لله وحده ، وهذا هو زادهم ؛ زاد التقوى الخشية من الله ، وتبلغ قمة الخشية أنهم مع عباداتهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله فى صرف العذاب عنهم ، وهذه العبادة حتى يتم التمهيد لتقبل القرآن ووعظه وإرشاده والعمل به كما جاء فى سورة المزمل:﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ .

قال القاسمى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ ..... ﴿ غَرَامًا ﴾ المراد من قولهم ذلك : فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى لا مجرد قلقلة اللسان بلا تأثر من الجنان ، فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ويتعوذوا به من سعيرها إلا بعلمهم بسوء حالها ، ومقتضى العلم بالشىء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه ، أما الانطلاق فى الدعوة بدون زاد العبادة والتضرع فصاحبه كالدجاجة المذبوحة فهى نشاط ما قبل الموت .. موت الروح .

ـ ومن صفات عباد الرحمن أن حياتهم نموذج للقصد والاعتدال فلا إسراف ولا تقتير ، وكل منهما يحدثان خللا اجتماعيا أو فحبس الأموال يحدث أزمات ، ومثله إطلاقها بغير حساب .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « النص الكريم يفهم منه يأمران : **أحدهما** : ألا ينفق فى حرام قط ، وألا يضن عن حلال موجود إلا تربية للنفس وتهذيبا ، وفطما لها عن الشهوات ؛ ولذا كان عمر ﷺ يعد من يطلب كل ما يشتهى مسرفا .

الأمر الثانى : إن الإنفاق بين الإسراف والفتر يختلف باختلاف أحوال الأشخاص ، فإذا كان الرجل كسوبا عليه أن ينفق فى الحلال والجهاد بمقدار كسبه وطاقته مادام ينفق فى مطلوب ، ومادام كسبه واسعا ، ولقد قبل النبى ﷺ من أبى بكر كل موفور ماله ؛ لأنه تاجر كسوب ، يعرف مواضع الكسب والخسارة ، ولم يقبله من غيره » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ألا ينتظر الداعية أجراً من دعوته بل يتوقع دائما الإيذاء والصد .

٢ ـ أن يستعين الداعية دائما بالله عن طريق الرحمن من التواضع والسكينة ، وقيام الليل ، والخوف من عذاب الله ، والاعتدال فى النفقة ؛ ليكون قدوة لمن يدعوه .

opelikandl.com

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٣٦٦

معانى الكلمات :

أثاما : جزاء الإثم الذى ارتكبه .

اللغو : الكلام القبيح .

قرة أعين : ما تقر به الأعين .

يعبأ : يهتم ويبالى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يكره المؤمن الفواحش .

٢ ـ أن يعلم الداعية عقوبة مرتكبى الفواحش .

٣ ـ أن يتبع المسلم كل أمر يوصله لرضوان الله .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق القرآنى ذكر صفات لعباد الرحمن هى مفرق الطريق بين الحياة للإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الهابطة لدرك الحيوان وهى كونهم يوحدون الله لا يشركون به شيئاً .

فهم يتحرجون فتوحيد الله أساس العقيدة ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة فى الاعتقاد ، والغموض والالتواء والتعقيد ، الذى لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس ـ إلا بالحق ـ مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التى تحرم فيها الحياة الإنسانية ، ويقام لها وزن ، وحياة الغابات والكهوف التى لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاع عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفا أسمى من إرواء سعار اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة ، التى لا هم للذكران والإناث فيها لا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان ، من أجل ذلك ذكرها الله فى سمات عباد الرحمن ، أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله ، وعقب عليها بالتهديد الشديد ، والعذاب الوبيل ، وليس العذاب المضاعف وحده ، وإنما هى المهانة كذلك ، وهى أشد وأنكى .

قال الإمام محمد أبو زهرة : « إن الله تعالى عدل ، يجازى السيئة بمثلها ، ورحيم يجازى الحسنة بعشرة أمثالها ، فكيف يجعل العقاب ضعف الذنب ، أجاب عن ذلك صاحب الكشاف بأن المضاعفة لأنه عقاب الشرك ، وعقاب الذنب الذى ارتكب من قتل نفس وزنى ، ونقول حينئذ لا مضاعفة .

والذى يبدو لى ـ غير متطاول على مقام الزمخشرى : أن العذاب شديد عنيف حتى إنه ليبدو لدى المعاقب ، كأنه مضاعف للذنب ، وإن المذنب دائما يحس بالجزاء كأنه أكثر من الذنب ، فالله تعالى يصور له العقاب كأنه مضاعف ؛ ولأنه يتجدد آنا بعد آن ، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودًا غيرها ، فهو عذاب بعد عذاب ، وبهذا التكرار الدائم يكون الدائم يكون كأنه مضاعف » .

ومع العقاب الشديد لمن يفعل هذه المنكرات ، فإن باب التوبة مفتوح دائما ليدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب ، **ويوضح صاحب الظلال** كيفية التوبة فيقول : « التوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهى بالعمل الصالح الذى يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية ، وهو فى الوقت ذاته ينشىء التعويض الإيجابى فى النفس لُلاع عن المعصية ، فالمعصية عمل وحركة يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذى تحسه بعد الإقلاع » .

ويعود البيان القرآنى لذكر صفة أخرى من صفات عباد الرحمن وهى أنهم لا يشهدون الزور لما فى ذلك من تضييع الحقوق والإعانة على الظلم وجعل الحق باطلا والباطل حقا .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ فهم يتجنبون حضور هذه المجالس .

يقول صاحب الظلال : « وقد يكون معناها الفرار من مجرد فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعا منهم عن شهود مثل هذه المجالس، والمجالات .. وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتمامتهم عن اللغو والهذر .. لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤية بله المشاركة فيه ، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها فى نفسه وفى الحياة كلها فى شغل شاغل » .

ثم يستمر القرآن فى ذكر سمات عباد الرحمن أنهم إذا سمعوا آيات ربهم آمنوا به ، ولم يكونوا كالصم والعميان؛ بل إنهم فى تحمسهم لعقيدتهم تحمس العارف المدرك البصير، لا تعصبا أعمى، ولا انكبابا على الوجوه هم ـ كما قال قتادة ـ قوم عقلوا عن الله ، وانتفعوا بما سمعوا عن كتابه .

وإزاء الشعور بحلاوة الإيمان يتمنى عباد الرحمن أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم فتقر بهم عيونهم **ويقول صاحب الظلال** : « هذا هو الشعور الإيمانى العميق : شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين إلى الله وفى أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة ، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال » .

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى : هداة دعاة إلى الخير ، فينبغى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون فى الله ، وليس فى هذا من أثرة ولا استعلاء ، فالركب كله فى الطريق إلى الله .

ثم تصل الآيات لبيان جزاء عباد الرحمن الذين أخلصوا مع الله فى الجنة فى أجمل أماكنها، فهؤلاء هم الكرام يستقبلون بالتحية والسلام جزاء على ما صبروا ، لأن هذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ومغريات الحياة ودوافع السقوط ، فجزاه الله بالجنة خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً لهم .

وتختتم السورة بختام يناسب موضوعها للتسرية عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهى أن البشرية لا تزن شيئاً لولا دعاء عباد الرحمن له ، فهم صفوة أهل الله وخاصته ، **ويقول صاحب الظلال** : «إن الإنسان لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئا،ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه! وهو هين هين .. ضعيف ضعيف .. قاصر قاصر إلا أن يتصل بالله ، فيستمدّ منه القوة والرشاد . وعندئذ فقط يكون شيئاً فى ميزان الله ؛ لذا فإن الكفار هم حطب جهنم ووقودها ، والمؤمنون ينتصرون وهم قلة ؛ لأن الإيمان أثقل قدرهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن باب التوبة مفتوح لكل تائب راجع إلى الله ، ويجب المسارعة إليها .

٢ ـ حرمة شهادة الزور وبيان آثارها الخطيرة ، وحرمة حضور محافل المنكر ، وأندية الرذيلة ، واجتماعات اللغو والباطل .

٣ ـ وجوب تدبر آيات الله دائما ، والعمل بها والتجاوب معها .

٤ ـ قيمة الصبر وفضيلته فى نيل رضوان الله وجزاءه من ربه .

٥ ـ إن علاقة الإنسان بربه وعبادته لله هى شرفه وعزه وقيمته الحقيقة ، أما الكافر والمعرض عن ربه فلا وزن له .